

الدرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وعملاً متقبلاً ورزقاً طيباً . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْقَلَبَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ؛ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) أخرجاه .

أورد المصنف رحمه الله هنا في «باب معرفة الله والإيمان به» هذا الحديث العظيم حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث من جملة الأحاديث التي يعرف بها المسلم ربه تبارك وتعالى ؛ يعرفه رباً رحيمًا غفورًا توابًا يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، يفرح بتوبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين ، مع أنه تبارك وتعالى غني عن العالمين ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، وهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا إنابة من أناب ولا توبة من تاب ولا استغفار من استغفر ، كل ذلك لا ينفعه تبارك وتعالى ولا يزيد في ملكه شيئًا ، ولهذا قال سبحانه في الحديث القدسي : ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره تبارك وتعالى معصية من عصي ، ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥] ؛ ومع هذا كله فمن كمال منه وعظيم لطفه

وجميل إحسانه يفرح تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب ، وهذا الفرح هو تفضلٌ ومنٌّ وكرمٌ وإحسانٌ من الله تبارك وتعالى .

وهو جل وعلا يفرح كما أخبر عنه بذلك أعلم عباده به ، إذ لا يوجد في عباد الله من هو أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد صح عنه الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعَلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا)) ، فهو عليه الصلاة والسلام أعلم عباد الله بالله ، وهو لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، وأخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الله يفرح ، فنحن نخبر عن الله بما أخبر عنه به رسوله ومجتباه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فنقول مؤمنين معتقدين : إن ربنا يفرح بتوبة التائبين ، ولا نشك في ذلك ولا نرتاب ، ولا ندخل في هذا الحديث أو غيره من أحاديث الصفات دخول المبطلين المعطلين الجاحدين المؤولين المحرفين ، فكل هذه طرائق زائغة عن سواء السبيل ، بل تُمرُّ نصوص الصفات كما جاءت ونؤمن بها كما وردت وقاعدتنا في هذا الباب: «من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم» ، فبينما صلى الله عليه وسلم أخبر أن رب العالمين يفرح بتوبة التائبين فنقول معتقدين إن الله يفرح بتوبة التائبين .

وصفات ربنا تبارك وتعالى المضافة إليه سبحانه كلها تليق بجلاله وكماله ؛ فهي ثابتة له سبحانه من غير تمثيل كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١١] أثبت لنفسه السمع والبصر بعد نفي المثلية ؛ فدل ذلك على أن إثبات الصفات لله سبحانه على الوجه اللائق به لا يستلزم التمثيل . والقول في الصفات قول واحد، وباب الصفات بابٌ واحد وهو أنها كلها تمر كما جاءت ويؤمن بها كما وردت دون أن تحرف ودون أن تعطل ودون أن تمثل بصفات المخلوقين ودون أن يحاول العبد تكييف صفات الرب تبارك وتعالى ، فكل ذلك ضلالٌ وباطل . فمن الإيمان بالله ومن معرفة الله : الإيمان بأنه يفرح بتوبة التائبين ، من إيماننا بربنا جل وعلا أن نؤمن بأنه يفرح بتوبة التائبين ؛ وهذا ما أخبر به رسوله عليه الصلاة والسلام ، بل إنه سبحانه يفرح بتوبة التائبين فرحاً عظيماً مع غناه جل وعز عن توبتهم ، ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً عجبياً عظيماً في بيان عظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده المؤمن ؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ)) إلى آخر الحديث .

وقوله ((لَلَّهِ)) قيل اللام لام الابتداء ، وقيل لام التأكيد .

((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا)) وهذا فيه تبيان لعظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب إليه وأتاب إليه ورجع إلى الله . قال ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ)) ؛ وعنده«» هنا إن كان توبة من الكفر إلى الإيمان فالعبودية هنا العبودية العامة التي هي العبودية لربوبيته سبحانه وتعالى ، وإن كان توبةً من العصيان فيما دون الكفر إلى الطاعة فالعبودية العبودية الخاصة التي هي عبوديةٌ لألوهيته ، لأن العبودية تطلق ويراد بها نوعان: العبودية لربوبية الله ، والعبودية لألوهيته .

١. العبودية العامة التي هي عبودية الذل والطواعية لتدبير الله سبحانه وتعالى وتسخير هذه الكائنات وهذه المخلوقات وكونها جميعها طوع تديره وتسخره سبحانه وتعالى ولا تخرج عن مشيئته وإرادته عز وجل ؛ هذا يشمل جميع المخلوقات، يشمل المسلم والكافر والبر والفاجر .

٢. والنوع الثاني: العبودية لألوهيته وهي عبودية الطاعة ، وهذه يتفاوت الناس فيها بتفاوتهم في طاعتهم لله سبحانه وتعالى .

قال: ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ)) وهنا ينبغي أن يُفقه ما يفرح الرب به ؛ وهو توبة العبد .
والتوبة: هي إنابة العبد ورجوعه إلى الله عز وجل بتركه ما فرط فيه من واجب ، ترك التفريط في الواجبات، وترك ما كان يغشاه من محرمات ومنهيات؛ بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وذلك بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه وزجر ، فالتوبة رجوع بترك التفريط في الواجب وترك فعل المحرم والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه تبارك وتعالى وزجر . هذه حقيقة التوبة التي دعا الله سبحانه وتعالى عباده إليها وأمرهم بالنصح فيها ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] ؛ أن يكون ناصحًا في توبته .

والتوبة التي امتدح الله عز وجل أهلها وعظم شأنهم وأخبر عن فرحه تبارك وتعالى بتوبتهم وذكر أنه يحبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وذكر لهم فضائل وثمار وآثار ينالونها في الدنيا والآخرة ، أهل التوبة هم من استجمعت توبتهم شروطًا ، لأن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا استتمت شروطها التي دل عليها كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

❖ وأولها: أن يكون التائب في توبته تائبًا إلى الله عز وجل مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله ، لهذا قال: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، قال: ﴿تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام في قصة الأسير التي سبق أن أشرت إليها لما أعلن ذاك الأسير توبته قال: «إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد» قال عليه الصلاة والسلام: ((عرف الحق لأهله)) ، فالتوبة لله ، ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، ولهذا لا بد أن يكون التائب في توبته مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله سبحانه وتعالى ، يريد بها الله عز وجل والدار الآخرة ، لا يتوب من أجل شهرة يطلبها أو مراعاة يقصده أو شيئًا من هذه المقاصد، وإنما يتوب يبتغي بتوبته رضا الله عنه وأن لا يسخط ربه تبارك وتعالى عليه وأن يحظى بثوابه تبارك وتعالى للتائبين . فهذا الشرط الأول؛ أن تكون التوبة خالصة لله عز وجل .

❖ والشرط الثاني: أن يندم التائب على ذنوبه وتفريطه وتقصيره ووقوعه في المحرمات ، يندم على ذلك ندمًا شديدًا ويأسف على ما كان منه من تقصير في جنب الله وفي طاعة الله وفي القيام بالواجبات التي أمر الله تبارك وتعالى بها ، يندم على ذلك .

❖ والأمر الثالث: أن يعقد العزم على أن لا يعود إلى هذه الذنوب؛ يعزم في قلبه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله تبارك وتعالى أن لا يعود إلى هذه الذنوب وأن لا يقارف شيئًا منها وأن يمضي على الاستقامة وعلى طاعة الله وعلى ما يرضي الرب تبارك وتعالى .

❖ والأمر الرابع: أن يقلع عن الذنوب؛ لا يسوّف في الإقلاع وإنما يقلع عنها ويتركها ويقبل على الطاعات ، وكم فوّت كثير من الناس حظهم من إقبال قلوبهم على التوبة إلى الله سبحانه وتعالى بالتسويق والتأجيل ، وكم من أناس أجّلوا التوبة واخترمتهم المنية قبل أن يحققوها ، لا زال يؤجل التوبة يندم على ذنوب فعلها ويتألم على فعله لها ونفسه لا تطاوعه على تركها فيبقى مطاوعًا لنفسه متماديًا في عصيانه مؤجلًا توبته إلى أن يدهاه الموت وهو غير تائب ؛ فيلقى الله عز وجل بغير توبة . ولهذا لا بد في التوبة من الإقلاع ، يقلع عن الذنب فورًا ويتركه ، ومع إقلاعه عنه وتركه له يعزم أن لا يعود إليه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله ، ويبقى نادمًا على تفريطه مقبلًا على طاعته لربه سبحانه وتعالى .

❖ والشرط الخامس: أن تكون توبته في وقت قبول التوبة ، والتوبة تُقبل في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار باب التوبة مفتوح ، وسيأتي معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) فالتوبة بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة من ليل أو نهار بابها مفتوح ، ولكن دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة ، مع أن بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة فقد دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة :

﴿الاول: أن يغرغر الإنسان وأن تصل روحه الحلقوم وأن يعاين الموت ويشاهد المفارقة لهذه الحياة فيعلن توبته في تلك اللحظات ، فمن كانت توبته في ذلك الوقت لا تُقبل منه﴾ ﴿وَكَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨] هذا ليس وقتًا للتوبة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ)) ، إذا بلغت الروح الحلقوم ثم قال "إني تائب الآن أعلن توبتي أتوب إلى الله" هذا لا ينفع ، قال العلماء لأن هذه التوبة توبة مشاهدة وليست توبة غيب ، والذي ينفع هو الإيمان بالغيب ، أما الذي يشاهد الموت ويعاينه ويرى قدومه على الله سبحانه وتعالى ومغادرته لهذه الحياة ثم في تلك اللحظة يعلن توبته هذا ليس وقتًا لها ، ولهذا لا تُقبل التوبة . والله عز وجل لم يقبل من فرعون قوله «آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل» لأنه قالها عن مشاهدة للموت ومعاناة له لما أدركه الغرق .

ﷺ والوقت الثاني الذي لا تقبل فيه التوبة: طلوع الشمس من مغربها ، وإذا رآها الناس آمنوا جميعاً لكن لا يقبل الله عز وجل التوبة حينئذ ، إذا طلعت الشمس من مغربها وتاب الناس لا يقبل الله عز وجل منهم التوبة في ذلك الوقت كما أخبر بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهذه شروط للتوبة وهي في الوقت نفسه يمكن على ضوء شرح هذا الحديث هي شروط لهذا الأمر العظيم الذي يفرح الله تبارك وتعالى به ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ)) .

ثم ضرب مثالا يبين عظيم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة التائبين من عباده قال: ((مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ)) أي بصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا طعام ولا شراب ((فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ -أي راحلته- وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا)) أي بحث عنها وطلبها هنا وهناك وهو في الصحراء القاحلة فلم يجد لها أثر ولم يقف لها على عين ولا على خبر ، بحث ولم يجدها فأيس ووقع في قلبه يأس من الحصول على الناقة ((فَأَتَى شَجْرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا)) اضطجع على جنبه في ظل تلك الشجرة ((وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ)) وجاء في بعض الألفاظ «فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت» لا طعام ولا شراب ويئس من الراحلة فاستظل في ظل شجرة واضطجع ينتظر الموت . ولنتصور هذه الحال؛ رجل في صحراء قاحلة ، وراحلته ضلت يعني ضاعت عنه ، وبحثها فلم يجدها وأعياه التعب وجلس بلا طعام ولا شراب تحت ظل الشجرة ينتظر الموت الذي يأتيه بالتدريج ضعفاً ضعفاً إلى أن تُزهِق روحه ، فهذه حال شديدة جداً على الإنسان . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا)) إذا بناقته واقفة عند رأسه وهو مضطجع ينتظر الموت وإذا بخظامها يتدلى عند رأسه ، رجعت إليه وعليها طعامه وشرابه ، فأخذ بخظامها وأمسك به فرحاً غاية الفرح، يقول ((فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ)) يقول عليه الصلاة والسلام : ((أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) .

هذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأشد ما يكون تصوراً للفرح الذي يقع من العبد ، فرح في غاية الشدة ، وهو مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأعظم ما يكون من فرح العبد في مثل هذه الحالة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بسوق المثال ((وأمسك بخظام ناقتة)) بل زاد في البيان قال : ((فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) ، وقوله لهذه الكلمة قالها عن ذهول بسبب الفرح الشديد الذي سيطر على عقله ؛ فذهل فقال كلمة الكفر ، ولا يكون من يقولها في مثل هذا الذهول كافراً لأنه لم يقلها عن اعتقاد بما أو قصد لها أو إرادة لقولها ، وإنما لسانه ارتبك من شدة فرحه فقدّم كلمة على كلمة لا يقصد ذلك هو ، لكنه مع ذهوله ومع شدة الفرح الذي عنده تقدمت عنده كلمة على كلمة ، بدل أن يقول «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» أخطأ من شدة الفرح فقدم كلمة على كلمة ؛ هذا التقديم والتأخير لو كان الإنسان يقصده ينتقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين ، ولكنه لذهوله ولسيطرة الفرح

عليه حصل عنده هذا الخطأ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((أخطأ من شدة الفرح)) فهو نوع من الخطأ المعفو عنه، ولا يؤاخذ العبد عليه إذا حصل له شيء من هذا.

الشاهد أن هذا الفرح الذي ذكر هنا فرحٌ عظيم وهو أشد ما يوصف في فرح العباد ؛ فقال : ((لله أشد فرحا بتوبة عبده إذا تاب)) من هذا الرجل ، وهذا يبين لنا أن إذا كان هذا أعظم فرح يقدر في فرح العباد ، والله عز وجل فرحه بتوبة عبده أعظم من هذا ، فمعنى ذلك أن كل فرح يوجد عند العباد لأي أمر يكون مما يفرحون به فرب العالمين سبحانه وتعالى فرحه بتوبة عبده أشد ، لأن هذا مثل لأشد ما يكون من فرح يكون عند العباد ، فهذا كله يبين لنا عظيم لطف الله عز وجل وعظيم منته وإحسانه؛ حيث إنه عز وجل مع غناه عن عباده يفرح سبحانه وتعالى بتوبة التائبين .

والعبد العاقل الناصح لنفسه ؛ هذا الحديث عندما يقرأه متأملاً له واقفاً عند دلالاته يفتح له باباً عظيماً في الإقبال على الله والتوبة إليه سبحانه وتعالى ، لو عقل الإنسان وتأمل هذا الحديث ، لو عقل هذا الحديث وتأمله لفتح له باباً عظيماً في التوبة والإقبال على الله سبحانه وتعالى والإنابة إليه ، فالرب جل وعلا يفرح بتوبة عبده إذا تاب وهو غني عن توبة عبده ، والمحتاج إلى التوبة هو العبد ، الفقير إلى التوبة هو العبد ، المنتفع بالتوبة هو العبد ، الذي ينال ثمار التوبة هو العبد، أما الله سبحانه وتعالى غني ، غني عن العباد وغني عن توباتهم ، وانتفاع العبد بتوبته هو انتفاع في الدنيا والآخرة ، لأن التوبة بركة على العبد في دنياه وبركة عليه في أخراه ، والمعاصي والذنوب شؤم ومضرة عليه في دنياه وفي أخراه ، فالحديث يفتح على العبد باباً للتوبة بل باباً للمسارعة إليها والمسابقة إليها والمبادرة إليها وعدم تأخيرها .

هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله لأن فيه تعريفاً بالرب؛ وأنه ربٌ كريم ، ربٌ محسن ، ربٌ جواد ، ربٌ لطيف سبحانه وتعالى ، ربٌ غني عن العباد وعن طاعتهم وعن عباداتهم ، ربٌ يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه ويقبل التوبة.

وليلاحظ هنا أن من دلالات هذا الحديث: أن الله عز وجل فتح باب التوبة للعباد من كل ذنب ، لم يخص ذنباً دون ذنب بالقبول ، فكل ذنب يتوب منه العبد توبة صادقة يقبل الله تبارك وتعالى منه توبته ويفرح سبحانه وتعالى بتوبته، كل ذنب يتوب منه العبد لو كان الذنب من أعظم الذنوب ومن أكبرها وأشنعها من تاب تاب الله عليه ، ولهذا تجد في القرآن الدعوة للتوبة موجهة للنصارى، موجهة للمشركين، موجهة للعصاة، لكل أحد ، كل أحد مدعو للتوبة وكل أحد مفتوح له باب التوبة مهما عظم جرمه وكبر ذنبه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] يعني بدون استثناء ، أيًا كان الذنب من تاب منه صادقاً تاب الله عليه وقبل توبته وفرح سبحانه وتعالى بتوبته .

فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تعرّف الناس ببرهم تبارك وتعالى ، ومن عرف هذا الحديث حسن إقباله على الله ، وزال عنه القنوط من روح الله ، وعظم رجاؤه في الله عز وجل وفي ثوابه ، لم يسيطر عليه يأْسٌ يقيدّه ، أو قنوطٌ عن الخير يحجبه ، بل إنه يقبل على الله عز وجل وينيب إليه ويكون تائبًا أوَّابًا ، فالحديث يفتح للعبد أبواب عظيمة جدًا من أبواب الإقبال على الله سبحانه وتعالى . اللهم تب علينا .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) رواه مسلم .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو أيضا من الأحاديث التي فيها تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى . قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) ؛ وهذا الحديث فيه من البيان بما يتعلق بمعرفة الله تبارك وتعالى أنه سبحانه وتعالى تواب يقبل التوبة من عباده مهما كانت ذنوبهم ومهما كانت معاصيهم وجرائمهم، يقبل التوبة في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار ، في أي لحظة يقبل تبارك وتعالى التوبة .

ويقول هنا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) ؛ فهذا فيه دلالة على أن باب التوبة مفتوح ، وتلقي التوبة حاصل وكائن في كل وقت وفي أي لحظة، من تاب في أي لحظة من اللحظات تاب الله عليه ، وهذا فيه من الدلائل : وجوب المبادرة إلى التوبة وحرمة تأخيرها والتسوية فيها ، حتى إن ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين» نبّه على أمر قلّ أن يتفطن له كثير من الناس ؛ وهو: أن تأخير التوبة من الذنب يُعد ذنبًا يجب أن يُتاب منه ، قال : «وكثير من التائبين يتوبون من ذنوبهم وينسون التوبة من تأخيرهم للتوبة منها»، وهي فائدة عظيمة جدا نبه عليها ابن القيم رحمه الله ؛ تأخير التوبة هذا ذنب ومعصية يقع فيها العبد أن يؤخر التوبة ، يعني يعلم أنه مذنّب وأنه مقصر وأن فعله يُسخط الله ويندم على هذا الأمر ثم يقول الشهر القادم أتوب ، وإذا جاء الشهر القادم أجّله للذي بعده وهكذا ، هذا التأخير بحذ ذاته يعد ذنبًا ، وبعض التائبين يتوب من ذنوبه وينسى أن يتوب من تأخيره ، يتوب من المعصية المعينة أو المعاصي المعينة التي كان يفعلها ولا يتوب من تأخيره للتوبة منها .

فالحديث فيه المسارعة للمبادرة للتوبة قبل فوات أوانها وقبل حصول الحرمان منها ، ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) كأنه يقال هنا للتائب: يا من أردت التوبة بادر، لا تَقُلْ أَوْجَلُهَا للوقت الفلاني أفضل، أو لانتهائي من الأمر الفلاني أحسن ، أو نحو ذلك من الخواطر التي تجعل كثير من الناس يؤخرون توبتهم ، بل سارع إليها في أي لحظة ، متى وجد الإنسان من قلبه إقبالا وفي قلبه ندما فليبادر إلى التوبة إلى الله عز وجل توبة صادقة ، وليسأل ربه تبارك وتعالى الثبات على هذه التوبة والعافية والوقاية من الذنوب ويصدق مع الله عز وجل .

((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) ولاحظ هنا مسيء الليل ومسيء النهار ؛ وهذا فيه أن إساءات العباد تقع منهم في الليل وتقع منهم في النهار ، وكثير من العباد يتقلب في لياليه وأيامه في إساءة تلو إساءة ، ورب العباد باسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، وباسط يده في النهار ليتوب مسيء الله ، وذاك غافل عن هذا كله ويتقلب في ليله ونهاره من مساءة إلى أخرى ومن ذنب إلى آخر ، يصبح على ذنوب ويمسي على ذنوب ، ثم يمسي على ذنوب ويصبح على ذنوب ، ويتقلب في ذنوب في لياليه وأيامه، ثم تكون مصيئته عظيمة عندما يلقي الله عز وجل بهذه المساءات المتراكمة التي اجتمعت له في لياليه وأيامه، يقدم على الله سبحانه وتعالى ويلقاه بتلك المساءات التي كانت منه والذنوب التي كان يقارفها في لياليه وأيامه ، ويندم ولا ينفعه حينئذ ندم . فكم يغفل الناس عن هذا الحديث العظيم ، ولو تفكر فيه الإنسان لفتح له بابا عظيما للتوبة إلى الله . وهذا مما يبين لنا أن نقص الناس في إيمانهم وأعمالهم وإنابتهم من نقص معرفتهم بربهم ، ولو تحققت في القلب المعرفة صحيحة قوية لترتب عليها صلاح في أعمال العبد وأقواله ، فإذا نقصت معرفة العبد بربه سبحانه وتعالى ترتب على ذلك من ضعف الدين ورقة الإيمان وفساد الخلق وفساد العمل الشيء الكثير .

قال: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) أي أنها إذا طلعت من مغربها طُبع على كل قلب بما فيه ؛ إن كان على الاستقامة فهو على الاستقامة ، وإن كان على الضلال والضياع والعياذ بالله كان عليها ، يُطبع على كل قلب بما فيه ، ولا يُقبل التوبة ممن يقول يا رب أنا تبت إليك يا رب أنا تائب إنني تائب أنا نادم ؛ هذه كلها لا تفيد ولا تنفع ، إذا طلعت هذه الآية العظيمة يصبح الناس يوما وإذا بالشمس بدل أن تطلع على عادتها من المشرق إذا بهم يفاجئون ويرونها تخرج من المغرب ، متجهة من جهة الغرب إلى جهة الشرق إيداناً بتغير حال العالم وخراب الدنيا وانتهائها وقرب انقضائها وزوالها وذهابها وقدم الناس إلى الله سبحانه وتعالى ، فمن تاب عند معاينته هذا الأمر لا يقبل الله تبارك وتعالى توبته، كما أنه أيضا لا يقبل توبته كما تقدمت الإشارة عندما يعاين الموت ويغرغر وتبلغ روحه حلقومه ، فهو في هذه الحالة أيضا لا تُقبل منه توبته .

العاقل عندما يسمع هذا الحديث العظيم يتحرك في قلبه إقبالاً على الله عز وجل ويقول لنفسه محاسباً معاتباً : يا نفس إلى متى هذا التماذي في الإساءة ؟ وإلى متى هذا التماذي في العصيان ؟ متى تقلعين أيتها النفس ومتى تتوبين ومتى تندمين ؟ يا نفس رب العالمين يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل وهو غني عن العباد وأنت يا نفس لا تزال مصرة على العصيان متمادية في الخطأ!! متى يا نفس تتوبين؟ يحاسب نفسه ويعاتبها ؛ وهذا يؤكد ما سبق الإشارة إليه أن معرفة العبد بالله كلما قويت في قلب العبد زان حال العبد وطاب أمره واستقام .

ونسأل الله عز وجل أن يتوب علينا ، وأن يرزقنا أجمعين الاستقامة على صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن عمر رضي الله عنه قال : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ؛ فَإِذَا امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) قُلْنَا «لَا وَاللَّهِ» ، فَقَالَ : ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا)).

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم أيضاً في باب تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى ، ومن نصح النبي عليه الصلاة والسلام ومن عظيم بيانه في دلالة الناس وتعريفهم بالله ... معينة التي من خلالها عليه الصلاة والسلام يقوي في القلوب ويمكن في النفوس المعرفة بالله عز وجل ؛ منبهاً بذلك عليه الصلاة والسلام أن معرفة الله عز وجل هي غاية المطالب وأجل المقاصد ، وهي الباب العظيم لهداية العبد وصلاح قلبه وصلاح أموره كلها ، فكان عليه الصلاة والسلام ينوع البيان ويستغل المواقف ليمكّن في القلوب المعرفة بالله تبارك وتعالى .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في ذكر رحمة الله جل وعلا وسعة رحمته وأنه تبارك وتعالى أرحم الراحمين جل وعلا ، واستغل عليه الصلاة والسلام هذا الموقف المثير للقلوب في جانب قوة الرحمة يشد القلوب شداً ، موقف رآه الصحابة يشد القلوب شداً في جانب الرحمة والإحساس بقوتها ، فاستغل هذا الموقف عليه الصلاة والسلام لبيان عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى .

جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ؛ فَإِذَا امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ)) يعني تجري وتعدو هنا وهناك تبحث عن ولدها طفلها رضيعها ، تبحث عنه ، تفتش عنه بين الناس وقلوبها يتفطر ، وأيضاً صدرها وثديها امتلأ بالحليب، وامتلاء صدر المرأة بالحليب يُعد مضرّة لها وأذى لها ، فصدرها امتلأ حليباً ، وولدها مفقود، وتعدو هنا

وهناك تبحث عن ولدها ، وهي في غاية اللف و غاية الشوق تريد ولدها ، بينما هي كذلك ((إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ فَأَلَزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا)) يعني ضمته إلى بطنها ضمًّا شديداً وألصقته ثديها وأخذت ترضعه ؛ هذه الرحمة التي في هذه المرأة في جريها وبحثها عن هذا الولد وسعيها وراءه ثم إلزاقها له وضمه إلى صدرها بحنان وعطف ورحمة ، هذه الرحمة ما هو قدرها؟

وهنا حقيقة يا إخوان ينبغي أن نقف ونعرف فضل الأمهات ؛ كم نغفل عن هذا الأمر؟ كم يغفل الناس عن فضل الأم ورحمتها وحنانها وإحسانها ؟ كم يغفل الإنسان عندما يكبر ويتعرع وينشغل بأمور الحياة عن إحسانٍ قديم وجميلٍ سابق ورحمةٍ متوالية وحنانٍ عظيم كم يغفل الإنسان عن ذلك؟ فهذا الحديث يصوّر الرحمة العظيمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم لولدها ، أمر عجب! حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يبين عظم رحمة الله عز وجل بعباده اختار أعظم مثل يمكن أن يقدر ويوصف ؛ وهو رحمة الأم بولدها . وإذا أراد الناس أن يضربوا مثلاً في رحمة الناس بعضهم ببعض لا يجدون مثلاً أعظم من رحمة الأم بولدها ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما اختار هذا المثل اختار المثل في أعظم شيء في بابه وهو رحمة الأم بولدها ، ليست هذه الرحمة في الأم من بني آدم حتى في الحيوانات ، سبحانه الله الحيوان الوحش الضاري جعل الله سبحانه وتعالى في قلبه رحمة لولده ، رحمة عجيبة جداً حتى إنه يرفع خفه وحافره لا يطأ ولده مع أنه وحش ضاري! رحمة جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم عجيبة جداً ، ثم في كثير من الناس تُتلقى هذه الرحمة بعقوق وجحود وإساءة وغلظة وفظاظة وينسى ذاك المعروف العظيم، وهذا كله من نقص العقول ونقص الدين ، ولأجل عظم حق الوالدين وحق الوالدة على وجه الخصوص قرن الله سبحانه وتعالى حقها بحقه في أكثر من آية في القرآن الكريم ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَكَوَلَدْتُكَ﴾ [لقمان: ١٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فيقول عليه الصلاة والسلام لما رأى هذا المنظر العجيب من الرحمة المتدفقة والحنان العظيم من هذه المرأة بصبيها وولدها وضمته إلى صدرها وأخذت ترضعه بكل حنان وكل شفقة ؛ فانتهر النبي عليه الصلاة والسلام هذه المناسبة لتعريف الناس بعظيم رحمة الله قال لهم: ((أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) يعني هذه المرأة التي بهذه الصفة وبهذه الحال التي رأيتم هل تتصورون أنها تأخذ هذا الولد الذي أرضعته وتلقيه في وسط النار؟ رحمتها تمنعها من ذلك وتمنعها من أمور أقل من ذلك ، فيقول هل تتصورون أن هذه المرأة تلقي ولدها في النار ؟ قال الصحابة قُلْنَا «لَا وَاللَّهِ» ما يمكن ، يعني رحمة بهذا الحجم وبهذا القدر ما يمكن تلقي ولدها في النار .

قال عليه الصلاة والسلام: ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا)) وهذا المعنى موجود في القرآن ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] ؛ يعني مهما قُدِّرَت الرحمة التي في العباد ، بل لو أن رحمت الراحمين من الناس جُمعت كلها وأصبحت رحمة واحدة فالله عز وجل أرحم جل وعلا ، أرحم بعباده من كل رحمة تقدَّر عند العباد . وهذا أيضا من الدلائل العظيمة والشواهد البينة على أن صفات الله سبحانه وتعالى لا يدرك كُنْهها الواصفون ولا يمكن أن تقدَّر ، كل ما يخطر ببال الإنسان من كمال يظنه وصفاً لله فالله أكمل وأعظم ، لأن صفاته سبحانه وتعالى لا يبلغ كُنْهها الواصفون ، مهما قُدِّر الإنسان في ذهنه من كمال وجلال وعظمة ، وهذا المثل ذكره النبي عليه الصلاة والسلام لتبيين الأمر وإلا رحمة الله عز وجل لا يُبلغ كُنْهها ولا تُعرف كيفيتها ، ورحمة لا يدور عظمها وكماها في بال ولا يخطر في خيال ، وكيف يبلغ كنه رحمته أو صفاته الواصفون وهو سبحانه وتعالى الكبير المتعال! ألسنا نقول «الله أكبر» ؟ الله أكبر من كل شيء ، الله أكبر من كل ما يدور في خيالنا أو في خواطرنا ؛ فهذا مما يبين لنا عظم رحمة الله سبحانه وتعالى .

إذا كان العبد متمادياً في العصيان غير مقبلٍ على طاعة الرحمن ثم يوم القيامة يصلى النيران فهذا غاية الحرمان ، لماذا؟ لأن الله عز وجل رحيم بعباده وأشد رحمة من هذه بولدها ، ثم العبد يعيش في هذه الحياة ولا يعرض نفسه لنيل رحمة الله ، رحمة الله عز وجل للمؤمنين للمتقين للتائبين للمنيبين للمقبلين على الله سبحانه وتعالى . ولاحظ المصنف رحمه الله أورد هذا الحديث بعد الأحاديث التي في التوبة ، يعني كأنه يقول: تفكر وتأمل في عظم فرح الله جل وعلا بتوبة عبده ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى أرحم الراحمين ، ورحمته بعباده لا تقدَّر ولا يُبلغ قدرها أو كُنْهها . فهذا فيه دعوة عظيمة للتعرض لرحمة الله ونيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، كما أن الحديثين الذين قبله فيهما الدعوة إلى التعرض للتوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

قال: ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا)) ؛ فهو عز وجل لا يلقي عباده في النار ، لا يلقي في النار إلا من استحق العقوبة بها، ويلقيه تبارك وتعالى فيها عدلاً منه سبحانه وتعالى . فالحديث يحرك في القلب رجاءً وخوفاً، رغبةً ورهبةً، ويجاهد العبد نفسه على أن لا يكون محروماً من هذه الرحمة التي يكتبها الله عز وجل لعباده المؤمنين التائبين المنيبين .

ونسأل الله عز وجل أن يتغمدنا جميعاً برحمته ، وأن يوفقنا لسلوك صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) رواه البخاري .

ثم ساق هذا الحديث في أيضا بيان رحمة الله عز وجل وعظم رحمته جل وعلا ؛ قال : ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ)) ؛ «عنده» أي عند الله ، « فوق العرش » أي العرش المخلوق العظيم الذي ذكره الله عز وجل في القرآن وذكر جملة من صفاته ، وذكره النبي عليه الصلاة والسلام في السنة وذكر جملة من صفاته ؛ وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأرفعها ، وأخير جل وعلا في القرآن في سبع آيات أنه استوى على العرش استواءً يليق بجلاله ، فهو سبحانه عليّ على خلقه مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله سبحانه .

وقد كتب كتاباً لما خلق الخلق كتب كتاباً وهو عنده سبحانه وتعالى فوق العرش ((إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) وفي رواية «سبقت غضبي» ؛ وهذا فيه كما بين أهل العلم تفاضل الصفات ، قال رحمتي سبقت غضبي ، وأيضا مما يدل على هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ)) .

قال : ((إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)) وهذا من الدلائل الدالة على عظيم رحمة الله تبارك وتعالى بعباده ، لأن رحمته سبحانه وتعالى تسبق غضبه ، ولا ينال غضب الله تبارك وتعالى إلا الظالم المضيع المفرط الذي استحق غضب الله تبارك وتعالى عليه .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ)) . ولمسلم معناه من حديث سلمان وفيه : ((كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) ، وفيه : ((فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)) .

وهذا أيضا فيه بيان للرحمة ، قال : ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ)) والرحمة هنا المذكورة في هذا الحديث ليست الرحمة التي هي صفة الله ، وإنما هي الرحمة التي هي أثر صفة الله جل وعلا ، وأن الله عز وجل لما جعل الرحمة أي الرحمة التي يتراخم بها المخلوقين جعلها مئة جزء ، يعني قَسَمَ هذه الرحمة إلى مئة جزء ((فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ)) فهذه الرحمة الموجودة بين العباد من جملتها ما سبق ذكره في رحمة المرأة بوليدها ؛ هذه رحمة في الحقيقة جزء من مئة جزء .

وقد جاء في الحديث الآخر عند مسلم قال : ((كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) يعني مئة جزء ، وكل جزء من هذه الأجزاء طباق ما بين السماء والأرض ؛ يعني يملأ ما بين السماء والأرض .

وفيه: ((فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)) يعني كَمَّلَ التسعة وتسعين جزء بهذه الرحمة ؛ فهذا يبين لنا رحمة الله سبحانه وتعالى ، إذا كانت هذه الرحمة التي بين العباد ويتراحمون بها وهي رحمة مخلوقة وهي من أعمال العباد ، إذا كانت بهذا الوصف بينهم فكيف برحمة معطي هذه الرحمة والمأن بهذه الرحمة والمتفضل بها!! فهذا مما يبين عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى ، لأن معطي الكمال أولى به، والله المثل الأعلى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) رواه مسلم .

وهذا أيضا من الأحاديث التي تبين وتعرّف الناس بالله تبارك وتعالى وعظيم إحسانه ولطفه بعبده المؤمن المنيب التائب المقبل على الله عز وجل ، وبيان الفرق بين حاله وحال الكافر ؛ الكافر يعامله الله جل وعلا بعدله ، والمؤمن يعامله الله تبارك وتعالى برحمته ونواله وعطائه وفضله .

ولهذا قال هنا : ((إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا)) ؛ إذا عمل حسنة أي من الحسنات التي لا تفتقر لنية ، لأنه لو صلى وهو على كفره أو صام وهو على كفره أو غير ذلك وهو على كفره لا تُعد حسنات ، لكنه لو ساعد فقيرا أطعم محتاجا إلى غير ذلك من أبواب الإحسان والمساعدات للناس؛ قال: ((إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا)) يعني يعطيه الله سبحانه وتعالى شيئا في الدنيا ، ويأتي يوم القيامة ليس عنده إلا سيئاته، وحسناته التي قدّمها أخذ عليها حظه في الدنيا ؛ فيلقى الله عز وجل بسيئاته فيطرح في النار ويبقى فيها مخلدا أبدا الآباد ، لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها . وهذا يبين لنا أن الكافر بالله سبحانه وتعالى لو كان يقدر من الأعمال أمثال الجبال من النفقات والمساعدات والبذل والمعاملة باللطف وغير ذلك من الأمور كل هذه لا تشفع له يوم القيامة في النجاة من النار ، بل يعطيه الله عز وجل عليها في الدنيا من مثلا الولد أو مثلا الصحة أو التوسيع بالمال أو العافية أو غير ذلك، ويوم القيامة يلقي الله عز وجل بكفره فيعاقبه عليه بالنار خالدا مخلدا فيها.

قال: ((وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ)) يعني يدخر له حسناته ثوابا في الآخرة يثيبه فيها عليها بالثواب العظيم مع ((رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) يعني يرزقه في الدنيا ويتفضل عليه في الدنيا بالصحة بالعافية بالمال بغير ذلك على تفاوت بين العباد في هذا الأمر لحكمة يعلمها سبحانه ، ولكنه جل وعلا يدخر

للمؤمن حسنات مع ما يعطيه من الرزق ، حتى وإن كان رزقه كفافاً فقد أعطاه الله من انشراح الصدر والقناعة والرضا وسماحة النفس وسرور القلب إلى غير ذلك من المعاني التي يهبها الله جل وعلا لعبده المؤمن .

فهذا من الأحاديث العظيمة التي تعرّف الناس بعدل الله جل وعلا ورحمته وفضله ومنّه وإحسانه ؛ حتى ينتبه العبد ويطرد الغفلة عنه ويقبل على الله سبحانه وتعالى ، لأنه إذا حُسُن إقباله على الله نال خيري الدنيا والآخرة كما هو بيّن في هذا الحديث وفاز بخيري الدنيا والآخرة ، لأنه قال: «يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ» ، «وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» ، فجمع بطاعته ومحافظته على الطاعة بين خيري الدنيا والآخرة ، والكافر خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله .

ونقف إلى هنا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .